المقالة الثامنة

فی قوله سبحانه : ﴿و لا یحیطون بشیء من علمه إلّا بما شاء﴾

و فیه اشارات :

[الاشارة] الأولی

[جمیع الموجودات حاضرة عنده تعالی]

قال الرازی فی الکبیر[۲] : «إنّ المراد من «العلم» هنا المعلوم کالخلق بمعنی المخلوق، و فی الأدعیة : «اللّهم اغفرلنا علمک فینا»[۳] أی : معلومک . أو لاتری أنّه إذا ظهرت آیة عظیمة قیل : «هذه قدرة الله» أی مقدوره، و المعنی : أنّ أحداً لایحیط بمعلومات الله تعالی» .

---

۱ . تفسیر ابن عربی، ج۱ ، ص۵۶

۲ . تفسیر الرازی، ج۷ ، ص۱۱

۳ . فتح الباری، ج۱۱ ، ص۴۷۴ ؛ حقائق التأویل، ص۹۶ ؛ التبیان، ج۲ ، ص۳۰۹

أقول : لمّا علم فى القرينة السابقة أنّ جميع الموجودات ـ سواء كانت كلية أو جزئية ، معقولة أو محسوسة ، صوراً علميّة أو محالا ادراكيّة ، أو آلات و مشاعر ـ حاضرة عنده تعالى بحيث يكون نفس وجودها فى أنفسها نفس علميّتها و معلوميّتها له تعالى من غير تضاعيف الصور الادراكيّة ، فجميع الموجودات يكون معلوماً ـ أى صوراً علميّة و معلومات بأنفسها لا بصورة مستأنفة أخرى ـ فاذا كان الأمر كذلك تكون العلوم كلّها معلوماً له تعالى ، و المعلومات كلّها معلومات و علوماً له تعالى معاً ، فكلّ ما يعلمه أحد منّا يكون بعضاً من علومه تعالى ـ سواء كانت علوماً لنا أو معلومات ـ .

فحينئذ لا يحتاج الى ارتكاب المجاز ، لكن لمّا كان العلم عند هذا القائل مجرّد الاضافة احتاج الى ذلك ، لأنّ الاحاطة لا تتعلّق بالاضافة و لا التبعيض يناسبها .

الاشارة الثانية

[تفسير قوله تعالى : «...إلّا من ارتضى من رسول»]

إنّه لا يعلمون الغيب إلّا من جهة اطلاعه تعالى بعض ملائكته أو أنبيائه على بعض الغيب ، كما قال : ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلّا من ارتضى من رسول﴾(الجن (٧٢) : ٢٧) .

الاشارة الثالثة

[علمه تعالى بذوات المجعولات علماً فعليّاً ، و هو المشيّة الالهيّة]

إنّه لمّا ثبت أنّ لعلمه تعالى مراتب بعضها متقدّم على بعض و علّة له ، و بعضها متأخّر عنه و معلول له ، و المتأخّرات عين ذوات الأشياء ، فيكون علمه تعالى بذوات المجعولات التى هى من مراتب علمه بوجه علماً فعليّاً ، و هو المشيّة الالهيّة أيضاً ، لأنّ علمه الذى هو فى مرتبة ذاته عين ارادته التى هى فى تلك المرتبة بالذات و يعبّر عنها بالمشيّة الذاتيّة ، و كذا كلّ مرتبة من مراتب علمه عين ارادته فى تلك المرتبة ، إذ مراتب الارادة على وزان ما علمت فى مراتب العلم ، فلامحالة تكون علوم غيره معلّلة عن مشيّته الأصليّة فلذا قال : ﴿و لا يحيطون بشىء من علمه إلّا بما شاء﴾ أى بسبب مشيّته ؛ لأنّ «الباء» سببيّة و «ما» مصدريّة ، لا أنّها صلة «يحيطون» ـ كما يتبادر الى الأذهان أوّلا ، و إن كان له وجه أيضاً ، لأنّ ما ذكرناه ألطف و أربط بما سبق و أليق بكلام الحق ، لدلالته على أنّ مشيّته سبب لعلومهم ، لا أنّ متعلّقها متعلّق علومهم .

الاشارة الرابعة

[فى الجعل البسيط]

إنّ المناسبة بين الشيء و المشيّة ممّا تحقّق مذهب القائلين بالجعل البسيط بمعنى أنّ الجاعل بهويّته و شيئيّته علة لهويّته المجعوليّة و شيئيته و الآية مشعرة بذلک لاشعاره بأنّه تعالى بمشيّته التى هى عين ذاته و عين علمه بذاته، يفيد شيئيّة علمه الذى هو عين معلومه، فتكون ذاته مشيء الأشياء و مذوّت الذوات و محقّق الحقائق ـ كما عليه الرواقيون من الحكماء ـ بل ذات الذوات و حقيقة الحقائق ـ كما عليه المكاشفون الواصلون من العرفاء.

الاشارة الخامسة

[ضمير الجمع فى قوله تعالى: ﴿ولايحيطون﴾راجع الى أهل المحيّة والولاية]

أن يكون ضمير الجمع فى﴿و لايحيطون﴾راجعاً الى أهل المحبة و الولاية، الواصلين الى مقام الاستغراق و المشاهدة، فيشاهدونه تعالى بالمشاهدة العقليّة و يشاهدون الأشياء بنور ذاته، فيكون الحق لهم سمعاً و بصراً كما وقع فى الحديث المشهور، فالمعنى: لايحيطون بشيء من علمه إلّا بمشيّته التى هى ذاته، فبذاته يعلمون الأشياء و به يسمعون و به يبصرون، كما أنّ به يقدرون على شيء ممّا كسبوا.

و ذلک لفنائهم عن هويّاتهم و قصر نظرهم عنها الى ذاته و تخلّقهم بصفاته على ما يعلمه الراسخون فى العلم و المعرفة من غير لزوم شيء من المحالات كصيرورة صفاته تعالى ـ التى هى عين ذاته ـ صفات العبد، أو حلول ذاته فى ذات العبد ـ كما توهمّه المحجوبون عن نسبة القيّومية التى لايشابهها شيء من النسب، لأنّها ليست بالحاليّة و المحلية، و لا الاقتران و المزائلة، و لا الاتحاد و المغايرة، و لا المماسّة و المباينة و لا الملاصقة و المحاذات، و لا المواصلة أو المفاصلة، بل هى نسبة مجهولة الكنه يعبّر عنها بأمثلة جزئيّة مقربة من وجوه و مبعدة من وجوه لمن يكن من أهل المشاهدة ـ فضلا عن الذين لايكونون من أهل المشافهة كأهل الوقت، حيث ليسوا ممّن كان له قلب أو ألقى السمع و هو شهيد، فليسوا من الواصلين للعين، و لا من السامعين للأثر.